هذه الرسالة بعثها رحمه ا ورضي عنه للحاجب السلطاني سيدي التهامي عبابو، يخبره فيها باتساع خطر المعترضين على الطرق الصوفية بفاس، وذلك من طرف جماعات من الطلبة الجهلة بقواعد الدين، فضلا عن دعائمه ومقوماته.

إني أستنجدكم بداعية محبتي في جنابكم من قديم بإخلاص تجدونه من نفسكم الطاهرة، وبما لكم من سلامة الإعتقاد من سائر النزغات، أرفع إليكم يا أهل النجدة خطابي، في أن تقوموا على ساق الجد في نصرة حزب أهل الله من بطانة السوء التي استفحل أمرها بفاس، ببغض كل من انتسب لطريقة من الطرق، فقد أشهر طلبة العلم خصوصا الصبيان منهم الحرب على مولاهم(1)، كما أشهر التجار الحرب عليه بتعاطي الربا، فالله الله في الأمة، فإني أكتب إليك هذا فضولا مني، ولكن لصدق محبتي في جنابكم أخشى ما سيعم نزوله من الحق، سائلا المولى أن يحفظكم سرا وجهرا، فقد أخبرني من أثق به أن هؤلاء الصبيان يلقون مسامرات وخطبا بالزاوية الناصرية من الحضرة الفاسية، تلك البلدة التي اشتهرت بمحبة آل البيت وتعظيم الشيوخ واحترام الأولياء، قد استحال أمرها إلى هذا البلاء الذي كاد أن ينتشر في العامة، فيتجر فيه الآن العامي الذي لا يفقه شيئا وينزل الآية في غير محلها، ويحرف الحديث مع اللحن الفادح، ولا يسمع منه إلا السب في جانب الصوفية، مع هضم جانب المنتسب لأي طريقة، وهدم ما شيده السلف الصالح من المجد الموصل، حتى صار جل من يذكر في الأوقات التي كان يعمرها بالذكر معرضا عن الأذكار، وأبدلوا ذلك بتتبع العورات ودم المتصوفة، وصار من كان محافظا على الصلوات في أوقاتها معرضا عن ذلك، وصارت علامة بوادر الإنتقام تظهر من الحق بحبس المطر، فالله الله سيدي أكتب لكم هذا ويدي ترتعش خجلا منكم، ولكن تعلمون صدق محبتي، وقد رأيت رؤيا هالني أمرها.

---

(1) من الملاحظ لدا جميع الباحثين أن العلامة سكيرج رحمه ا لم يتوانى ولو يوما واحدا في الدفاع عن التصوف وأهله، بل كان حازما ياقظا يذوذ عن الحمى كل من سولت له نفسه النيل من سمعة ومكانة ساداتنا الأولياء والأعلام الكرام، وخير دليل على صحة ما أشرنا إليه العدد الهائل من كتبه التي ألفها في الرد على المنكرين والمتعصبين، سواء بالمغرب أو خارجه، وكان رحمه ا يدعو كثيرا إلى عدم التشدد في الدين، لما فيه من آثار سلبية تميل بصاحبها وتنحرف به عن النهج السوي، كما كان يدعو إلى الإعتدال في الرأي ونبذ الغلو المذموم المفضي براكبه للهلاك الفظيع. ولهذا السبب ناشد مرارا هؤلاء الطلبة المعترضين المعتدين على حرمة أضرحة الصالحين بضرورة الإقلاع عما هم يهيمون فيه من العصبية والتشدد، وما ساقهم إليه الجهل والبغض من قلة الحياء وسوء الظن بأهل ا تعالى من الأولياء والصالحين وأتباعهم.

ومن ناحية أخرى دعاهم رحمه ا للاعتناء بتحصيل العلم والمعرفة، والسعي وراءهما بالمثابرة والإجتهاد، بدلا من تضييع الوقت في إذاية الأولياء وتنقيصهم والإساءة لمن انتمى إليهم، وفاعل هذه الأمور الخبيثة محارب تعالى، بمقتضى قوله (ﷺ) في الحديث القدسي قال قال ا تعالى : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب.

فأرجو منكم أن تتداركوا هذا الأمر الفظيع بكف أذى هذه الشرذمة، بترهيبهم وتخويفهم إن اقتضى ذلك في نظركم بنظر الحضرة الشريفة، ولا أقل من أن يلجموا فمهم بلجام ترك الخوض في أعراض الأولياء، ثم بعد ذلك فليعتقدوا ما شاءوا، وعلى الأقل أن تصدر العقوبة في حق بعض الفاسيين، والجمع مشهور سيما إذا وقع الهجوم عليهم في ناديهم الذي يلقون فيه خطبهم، وإلا فعلى الدين العفاء، فهل من غيرة تغير هذا المنكر ؟ أرجو أن تكون غيرتكم هي التي يؤيد الله بها ضعفاء الفقراء، وقد جرت على لساني أبيات تفاءلت بمطلعها في سقوط نجم المبغضين في الأولياء بنهضتكم في المدافعة عنهم، ولكم من الله الجزاء ونص القصيدة :

نجم الشقاوة قد هوى من الأفق　　إلى الحضيض الذي يهوي بكل شقي

واستنصر الحق في تشتيت شملهم　　بناصر الحق وهو كهف كل تقي

الحاجب العالم الذي له نشرت　　في المجد رايات نصر الحق في الأفق

سلم عليه وأعلمه بما اتفقت　　عليه شرذمة الأهواء والنزق

فإنهم أطلقوا في الدين ألسنة　　في هضم جانب أهل الله في الفرق

في هدم مجد لأسلاف أفاضل في الإسلام كانوا كمثل النور في الحرق

في الناصرية من فاس جموعهم　　تحزبت وتمالأت على الطرق

قاموا بكل نكير قابضين على　　حبل الهوى وهووا في مورط الزلق

تتبعوا عورات المومنين وهم　　قد لطخوا كل عرض في العباد نقي

واستجلبوا كل ذي جهل وذي سفه　　من صبية عيبة الفجور والحمق

قد بدلوا دينهم سرا وفي علن　　تبادلوا خطبا بالحق لم تلق

يا ناصر الحق هل ترضى بما فعلوا　　والناس في الجهل قد غاصوا إلى العنق

بادر بتشتيت جمعهم فجمعهم　　قاض بتشتيت شمل الحق في الطرق

وهم قد استفحلت في القوم نهضتهم　　بما يبثونه في الخلق من خلق

والشرك أسرع شيء في النفوس سرى　　من كل قلب شقى بالشر فيه سقي

فانهض بعزمتك التي عهدت بها　　واستبق للدين ما أبقوه من رمق

أما ما عرفتم عليه في الشرذمة الضالة فقد اتسع الخرق فيها على الراقع، وأمر الله فيهم ماله من دافع، ولكن نرجو الهداية لآل البيت منهم، وليس ذلك على الله بعزيز، ولقد انتشر ميكروب هذا الداء العضال، وتمكن من سريانه في شريان الجهال، فاستحالت محبتهم في أهل الله بغضا، وعض بعضهم من آل البيت النبوي عضا، فصار الكل مكلوبا.

وقد كانت النهضة الأولى من ذوي العلم بوازعين قويين، أحدهما في إنكار بعض الأمور المنسوبة للمتصوفة لما اشتملت عليه من الشطحات حتى لا يتضلل العوام، وليتهم سكتوا عن تقرير تلك الضلالات، فإنها تمكنت من عقول هذه الشرذمة التي هي شر محض.

ولذلك قال بعض أساطين الدين : تقرير الرد على المبتدعة فيه روجان بضاعتهم، وهذا ما كان يختلج في صدري حين كنت تراني متألما مما تقرره في كتابكم المسمى أداء الحق المفترض، ونظرت إلى ما سيؤول إليه الأمر، وأنا في الحقيقة من أنصارك في الحق الذي حققته بما منحك الله من حلو العبارة، وسلب العقول بالإشارة، فكنت غير ملتفت لقولي، والأمر لله، فإن نهضتكم كانت للحق، ولكن المتنطعين خرجوا من باب الحق لمتسع الخرق، فنهضوا بالوازع الثاني الذي هو حب المحمدة والتظاهر بنصر الدين، وهم ليسوا من الدين في شيء، وزعموا أنهم مصلحون لما أفسده الخلف والسلف، والله يعلم المفسد من المصلح، فهم بلا شك البغاة، وعلى الباغي تدور الدوائر (2).

---

(2) كان العلامة سكيرج رحمه ا شديدا على المنكرين للطرق الصوفية، عارفا بأساليبهم وحيلهم، متمكنا من مخططاتهم وأهدافهم، مطلعا على خبايا غاياتهم، عارفا بمعظم ما يستعملونه وراء ذلك من سلاح أدواتهم، ولهذا استطاع رحمه ا أن ينتصر عليهم في جل المناسبات، حيث هزم جيشهم المجاحد وشتته، وكسر جمعهم المعاند وفتته، ولم تقتصر مقاومته إياهم على تآليفه المطبوعة المنشورة بين الناس، بل تعدت ذلك إلى إلقاء المسامرات، ومجابهتهم وسط المحافل من خلال الندوات والمحاضرات.
وهكذا توالت هزائم المنكرين، وباءت مخططاتهم بالفشل الذريع، أما بضاعتهم فقد كتب عليها الكساد، ولم تستطع تحقيق ما كانت تصبو إليه من روجان عرضها الزائف، وحول هذا الموضوع قال أحد زعماء المنكرين صراحة وقتذاك : لم نفرح بشيء كفرحنا بوفاة الفقيه سكيرج إه ... وهي شهادة كافية على صدق ما قلناه، والشهادة ما شهد به الأعداء، وغاب عن هذا المنكر الغبي أن مثل العلامة سكيرج لا يمكن أن يموت أبدا في نظر قارئيه، بل هو حي بأفكاره وآراءه ومآثره العلمية الخالدة.